إيزيس

« ولد أوزوريس من الإله جب (الأرض) ومن الإلاهة ناوت (السماء) حين أدرك هذين الإلهين الهرم فعجزا عن قمع وحشية الناس وشرهم . ولما كبر تزوج من أخته إيزيس ، وجلس على عرش المصريين وصار ملكاً على الآلهة والناس جميعاً . وقد استطاع بفضل الجمال والعلم والصلاح أن يتغلب على شر الناس وأن يردهم إلى السلم وأن يعلمهم صناعاته .

وكان « ست » إله الشر أخاً لأوزوريس . ولما رأى من آيات حكمته أدركته الغيرة ، فدعاه إلى وليمة أعد فيها صندوقاً فاخر الصنع ووعد أضيافه بأنه مهديه لأى منهم طابق الصندوق حجمه . فدخل إليه الضيوف واحداً بعد الآخر ، حتى إذا كان دور أوزوريس واستوى فيه — وكان قد صنع على حجمه — أسرع شركاء إله الشر وأقفلوا الصندوق وألقوا به فى النيل ، فدفعه التيار إلى البحر ، وقذفت به الأمواج إلى شاطئ الشام ، وبقى عنده تحوطه شجرة أنماها القدر لتحميه من الأعين ، إلى أن جاءت به إيزيس إلى مصر بعد حزن وبحث . لكن « ست » عثر بأخيه ثانية فى إحدى جولاته جوف الليل فمزق جسده أربعة عشر جزءاً ألقى بكل منها فى مكان . فعادت إيزيس إلى بحثها واستعادت أجزاء الجسم ، واستعانت بأختها وبابنها الإله هورس وبطقوس الدين ؛ فردوا إليه حياة شابة خالدة لا يحياها على الأرض بل فى السماء . وكذلك بعث « الإله الملك » ووعد بالبعث كل من يفعل الخير فى حياته .

(أبيس — ص ٢٨٦ و ٢٨٧ من كتاب فى أوقات الفراغ) .

« لقد حدثتكم بحديث إيزيس فرأيتم مبلغ وفائها لأخيها وزوجها أوزوريس . قتله أخوه إله الشر تيفون ، فاستقلت البحر باحثة عن جثته . فلما عثرت بها وعاد تيفون إلى تقريق أجزائها عادت تبحث حتى جمعت الأجزاء الأربعة عشر ، ثم حبست نفسها لتعيد إلى إله الخير حياة الخلد . وعملها هذا آية فى الوفاء من امرأة ، وهو خير مثل لما يجب أن تكون عليه الآلهة .

. . . . وقمنا إلى نزهتنا فأقلنا زورق وسعنا جميعاً . ودار حديثنا حول عبادة إيزيس فى مصر وروما واليونان » :

(سميراميس – ص ٣٠٦ من كتاب فى أوقات الفراغ)

تخطينا أبواب سميراميس فإذا أضواؤها طرحت على الرصيف أمامها وعلى الطريق بعده ضياء مبهماً اختلط بضوء القمر السابح فى السماء ولما تكتمل دائرته ، فهو ثلاثة أرباع ، تعرج طرفه المشطور فجعل له ذقناً وأنفاً وجبيناً وضاء . وكست الأشجار الرصيف المقابل للفندق ظلاماً . فلما بلغنا الشاطئ ألفينا صفحة النهر صقلها القمر بشعاعه الندى فجعل منها مرآة له وحده ، ونزلنا على الدرج إلى مرسى الزوارق وقد اصطفت بعضها إلى جانب بعض ومنها الصغير يسير بالمجداف ولا قلع له ، ومنها ما طويت قلوعه فى انتظار من يستقله ، ومنها ما أحاطت بجوانبه ستور هيأت منه معبداً للزهرة وآلهة الهوى جميعاً . ووقفنا وتقدم الذى دعانا إلى الشاى يتخير لنا زورقاً لا ستور على جوانبه ؛ فليس حديث الرجال فى حاجة إلى ستر وإن تناول الجمال وآلهته والهوى ورياته . وتنادى أصحاب الزوارق كل يكشف من فضائل زورقه عما يحسبه مرغباً إيانا فيه ، وجعل كل منا يدير نظره فى هذه السوابح ليتخير ألطفها وأظرفها . فأما الأشيب فوقف فى شبه ذهول برهة لا ينظر إلى الزوارق ولا إلينا . وتخيرنا زورقنا وجاء

صاحبه يعاوننا على التخطى إليه . فلما كان دور الأشيب وأمسك رب الفلك بيده سمعت الأشيب يهمس فى أذنه :

– إلى أين ذهبت السيدات الإفرنج والسادة الذين سبقونا إلى هنا منذ هنيهة ؟

فابتسمت وعجبت لفعل جمال فاتنة الفندق بالأشيب ، ونظرت إلى « الريس » فإذا به يجيب فى جد من يدرك قداسة الهوى مشيراً إلى ناحية جسر عباس :

– هم سألوا عن ذهبية أحد البكوات هناك ، وأحسبهم يقصدونها .

أخذنا أماكننا ، ونشر الريس قلع زورقه بعدما دفعه فوق لجة الماء والنور بمجدافه . وسرى إلى نفوسنا نسيم عذب بليل زاده القمر رقة وعذوبة . وجرى الزورق يدفع ذلك النسيم فى قلعه وقد وجهه الريس إلى ناحية جسر عباس ، كأنما هداه سؤال الأشيب طريقه . وسرحت بصرى نحو الجزيرة ، فاستوقفته إحدى الذهبيات وكأنها بجمالها قدس هوى أنبته الماء وانبثت فيه أنوار الكهربا المطلة من نوافذها الرشيقة الضيقة . وأدرت نظرى إلى سميراميس ، فإذا هى بأضوائها الكثيرة منارة هدى لفلك النهر جميعاً . وأشركت أصحابى فيما جال بخاطرى ، فكان الأشيب أسرعهم إلى إجابتى :

– هى منارة هدى للقلوب والأبصار .

وابتسمنا . . أما هو فلم يبتسم ؛ لأنه كان فى شغل بالذهبية التى ذهبت إليها الفاتنة وأصحابها .

ثم قال الذى دعانا إلى الشاى يداعبه :

– لعلك لا تشير إلى فندق سميراميس بل إلى سميراميس الإلهة التى جعلت الفندق منارة هدى ومعبد هوى : ولعل الذى هدانا إلى الفندق

والإلهة فيه ، يهدينا إلى الإلهة حيث تكون .

وابتسم الأشيب لهذه الدعابة ، وابتهل إلى الله أن يجيب الدعاء . ثم توجه إلى نجىّ أبيس بقوله :

– وأنت يا صاح خذ بنا فى حديث إيزيس . فلعل الإلهة التى عثرت على أخيها وزوجها أوزوريس تهدى هذا الزورق فيعثر على صاحبتها الإلهة السيدة سميراميس .

قال نجىّ أبيس :

– لا يكن قولك عبثاً بمعبودتنا القديمة التى امتد سلطان ربوبيتها من مصر إلى أثينا وروما ، ولتؤمن بأن لاسمها سرًّا تعنو له القوى حتى اليوم . وإذا كانت قد تغلبت إبان حياتها زوجة لأوزوريس على كل العقبات بالجمال والعلم والطيبة ، فإنها ظلت بعد ما ارتفعت إلى أثير الخلد تؤتى عبادها المخلصين من روح قوتها ما يتغلبون به على كل عقبة ، لكنها تطلب إليهم أن يكونوا مثلها ذوى صبر وإيمان . فلا تحسب يا صديقى أنها عادت بأوزوريس فى صندوق الخيانة الذى حبسه فيه أخوه إله الشر من غير عناء . بل لقد ركبت فى سبيل ذلك من الأهوال ما تضعف دونه همم الرجال . ولولا ربوبيتها وحرصها على أن يدفع الخير الشر ؛ ويغلب الرجاء اليأس ، لأسلمت للقدر وعنت لنكد الحظ . وقد كادت تضعف أول ما عرفت الخبر ، وكاد الهم والحزن يقعدان بها دون النضال . وكفاها يومئذ أن قصت خصلة من شعرها وأن لبست الحداد . لكنها عافت أن تستسلم لتيفون ، وأن تدع الخير دفيناً فى محبسه غير مخلد فى السماوات . وسارت فألفت على شاطئ النيل عند مدينة قفط أطفالاً سألتهم عن الصندوق وهل رأوه ؟ والأطفال كما تعلمون ، أحباب الله . وهم لذلك ملهمون من

أمـر الغيب ما لا يلهم الرجال . فلما عرفت منهم سير الصندوق تبعته حتى مصب النهر وإلى جبيل فى الشام . وكان أهل جبيل قد بهروا بنمو الشجرة التى أحاطت به وحفظته فى جذعها . فلما بلغ ملكهم (مالكاندر) أمرها أمر بها فقطعت وجعل منها عماداً لبهو قصره . وأحاطت الرياح المقدسة إيزيس بذلك كله خبراً ، فجلست عند مورد ماء مكتئبة لا تكلم إنسيًّا . فلما مر بها خادمات الملكة عشتروت ، حيتهن وتحدثت إليهن ومشطت شعورهن وعطرت أجسامهن بالعطر الذى يفوح من شذا شخصها المقدس . وعدن إلى سيدتهن ، فتاقت إلى معرفة الغريبة التى ضوّعتهن بالشذا العذب ، وبعثت فى طلبها ، فبهرها جمالها وحكمتها ، واتخذت منها صديقة لها ، وعهدت إليها فى تربية ولدها وشفائه . وكذلك أتيح للإلهة الحزينة أن تقيم على قبر زوجها الدفين فى عماد البهو تشدو حوله كلما سجا الليل بأغنيات الموت والأسى . فإذا فرغت من شدوها عادت إلى الطفل تحرق من جسمه كل أسباب المرض والفناء . . وفطن بعض من فى القصر لها وأبلغوا الملكة خبرها ، فراقبتها ليلة ، حتى إذا رأت النيران تخرج من فمها صوب الطفل صرخت جزعة مرتاعة . فسلبت الإلهة من الطفل ما كان قد أصاب من أسباب الخلد وإن أبقت له صحته . وخافتها الملكة وحسبتها ساحرة ، فعرضت عليها أن تأخذ ما تشاء وأن تغادرهم . فاختارت إيزيس العماد ، وشقته وأخرجت منه الصندوق وما كادت تراه حتى علا نحيبها ، ثم حملته فى قارب وبعدت عن جبيل وفتحته وقبلت أوزوريس وألصقت وجهها بوجهه وبكت أمرَّ بكاء . ولما بلغت مصر نحّت الصندوق فى مكان تبحث عن ابنها هورس وعن أختها نفتيس ليعيدوا للملك الإله حياته .

« فلعلك ترى يا صديقى أن إيزيس تجشمت فى سبيل العثور على جثة زوجها أوزوريس من المشقة ما لا تتجشم النسوة فى سبيل البحث عن أشلاء

أزواجهن ، بل عن أزواجهن الأحياء . وإنما هو الوفاء الذى جعلها تستمرئ المشقة ، وحرصها على غلبة الخير للشر هو الذى هون على ربوبيتها أن تخضع « لملاكندر » وامرأته .

ولما عثر « ست تيفون » أثناء صيده بالصندوق وبه جثة أخيه مزق الجثة أربعة عشر شلواً وألقى كلا منها فى مكان . وليس من اليسير تصور ما تجشمته إيزيس فى سبيل العثور من جديد بالأشلاء جميعاً . واجتمعت لها أعضاء أوزوريس كلها خلا عضواً فرداً كان الشر قد ألقى به فى النهر طعاماً للأسماك ، مما اضطر إيزيس إلى أن تصنع مكانه صورة له من الشمع ليتم لها الرجاء فى إعادة الحياة الكاملة لإله الخير الذى عبث به الشر وأعوانه شر عبث . وكأنما كان الخير فى عصور الآلهة مثله فى عصور الناس هيَّاباً للشر ، متحاشياً إياه ، قاصراً عن دفع هجماته ، عاجزاً من مهاجمته . فإن إيزيس خشيت بعد الذى لاقت من نصب فى بحثها أن يعثر تيفون بالخير مرة أخرى ويعبث به ، فأقامت أربعة عشر قبراً فى أربع عشرة قرية من القرى التى عثرت بالأشلاء فيها ، وزعمت أن كل واحد منها قبر أوزوريس ، لتضل بذلك أخاه فى مطاردته إياه . وما تزال هذه القرى تدعى إلى يومنا بهذا الاسم . فأبو صير ليست إلا « بوزيرى » أو قبر أوزوريس . وإقامة هذه القبور جهد مضن أشد إضناء ، وهو بعض الوفاء الذى تميزت إلهة مصر القديمة على غيرها من إلهات الجمال اللائى ازدرين الوقار وسخرن من العفة .

قال صديقنا الشاب :

– ظريفة أساطير القدماء ! وأقر لكم الآن بخطئى حين سخرت من عبادة أبيس . فما دام للجمال آلهة وللوفاء آلهة وللخير وللشر وللنور والظلام آلهة ، فمن حق ثمرات الأرض أن تكون لها آلهة . وللثور كما للنيل وللشمس

حظ فى إنبات هذه الثمرات . فمن حق الثور أن يكون إلهاً كالشمس والنيل ، ومن حقه أن يكون أوزوريس أو غير أوزوريس من أكابر الآلهة رمزاً له .

وقال الذى دعانا إلى الشاى باسماً :

– ما أسعد جماعتنا بعودك إلى ذوق أساطير أسلافنا ! وما أشدنا سعادة بإجلالك عبادة أبيس ! فهو وحده الذى اختص مع النيل والشمس بعبادة مصر القديمة منذ أقدم عصور تاريخها . أما سائر الآلهة فكان لهم شأن غير شأنه وحديث غير حديثه . كان لكل منهم اختصاص لا يتخطاه . وأحسب أن توزيع الأختصاص بين الآلهة فى مصر القديمة وفى اليونان وروما ، ونسبة الخير إلى أحدهم والعلم إلى غيره والشر إلى ثالث وهلم جراً ، لم يكن إلا بعد تطورات سياسية واجتماعية مرَّ بها عبَّاد هذه الآلهة . وأحسب أنهم أول نشأتهم كان كل منهم إلهاً طائفياً له كل صفات الربوبية عند أهل طائفته ، كما كانت أوثان العرب قبل الإسلام آلهة كل منها لقبيلة ، ولكل فى نفوس عباده كل ما كانت تتصوره هذه النفوس الساذجة الضالة من صفات الربوبية . ثم كان أن تغلبت طوائف على أخرى أو امتزجت طوائف بأخرى ، فكان إله الطائفة المغلوبة على أمرها شقياً مثال النقص والفساد ، وكان إلاها الطائفتين الممتزجتين صنوين فى الفضل بلغ من تشابه صفاتهما أن امتزج كل بصاحبه . وأذكر على سبيل المثال أن آمون إله طيبة لم يكن أول أمره ذا مكانة عند غير عباده ، وكان رع هو الإله المقدم فى أنحاء مصر الأخرى . فلما آل إلى طيبة عرش مصر وكان لزاماً أن يصير لآمون مجد طيبة ، لم يكن إلا أن امتزج برع فصار الإله آمون رع . ولما أصبحت مصر مملكة واحدة توزعت جهود الألوهية بين آلهة عشائرها المختلفة ، وخص كل منهم بعمل من الأعمال ووصف به . وأعمال هذه الآلهة هى ما قضت حاجات عبادها النفسية أن تكون ، وهى لذلك

مظهر من مظاهر شهوات الإنسان ومخاوفه وآماله . على أن التاريخ المعروف ضنين بأن يحدثنا متى تم هذا التوزيع . وكل ما نعرفه عن ثقة أن رع كان كبير الآلهة منذ كان للآلهة كبير ، وأن هورس كان إله الشمس فى هليوبوليس . ولقد ظل له ولفتاح إله منفيس أكبر السلطان ، حتى جعلت طيبة إلهها آمون قريباً لرع وإلهاً للشمس كهورس وفتاح . وكان لكل من هؤلاء الآلهة ممثل له من حيوانات الأرض .

قال الشاب :

– وما حكمة اختيارهم الحيوان ممثلاً لآلهتهم ؟ ! أولم يكن خيراً أن يرسل كل إله للناس رسولاً منهم من أن يرسل حيواناً أعجم ؟

وأجاب الذى دعانا إلى الشاى :

– ما أحسب المصريين القدماء كانوا قوماً فى بداءة الحضارة ، حتى أصدق الرواية التى تفسر عبادتهم الآلهة الحيوانات بأن الناس كانوا أول الخليقة أكثر من الآلهة عدداً وخبثاً حتى خشيتهم الآلهة ، فتقمصوا أجسام الحيوان لينالوا عطف الناس عليهم وليطفئوا من نارشرهم . بل إنى لأميل لتصديق ما يروى من أن جنود مصر هزمت غير مرة فى وقائع متعاقبة بسبب اختلاط أفراد فرق جيشها بالفرق الأخرى ، فاتخذت لكل فرقة علماً جعلت عليه رسم حيوان كى يهتدى الجند به . فلما تم لهم هذا النظام سار النصر فى ركابهم مما أعز أعلامهم عليهم . وكما يقدس أهل هذا الزمان رمز وطنهم ، وكما يفتدون بالروح علمه ، كذلك قدس قدماء المصريين أعلامهم وما عليها من صور ، وقدسوا تبعاً الحيوانات التى تمثلها هذه الصور . ومر الزمن أصبح هذا التقديس عبادة لهذه الحيوانات وتأليهاً لها على نحو ما يفعل عامة الناس فى كل بلد وكل دين بإزاء أوليائه المقربين .

« ويضيف المؤرخ القديم ديودور الصقلى سبباً ثالثاً فى تأليه قدماء المصريين للحيوان يدل على أنهم كانوا فى ذروة حضارة كاملة ؛ ذلك أن هؤلاء المصريين إنما كانوا يقدسون فى الحيوانات فائدتها للحياة الإنسانية . والإنسان لا يقدس إلا فائدته ولا يؤمن إلا بها . فالبقرة تحرث الأرض وتنسل ثيراناً وأبقاراً للحرث والنسل ، ومن صوف الغنم يلبس الناس ، ومن ألبانها يصنعون الزبد والجبن . والكلب حارس أمين ورفيق فى الصيد بارع . ومن الطيور ما عبده المصريون لقتله الثعابين والحشرات الضارة بالناس وبالزرع . أما صاحب الجلالة القدسية أبيس فقد كانوا يعبدون فيه قوة إخصاب الأبقار لتنسل والأرض لتثمر . وفى ثمر الأرض متاع للإنسان وفائدة أى فائدة .

« لم تكن الحيوانات إذن رسلاً للآلهة بل كانت هى الآلهة نفسها » .

أتم الذى دعانا إلى الشاى قوله ، وأراد نجىّ أبيس أن يتم حديث إيزيس ، لكن الشاب استمهله بابتسامة وبإشارة لطيفة من يده وقال :

– ليس أشهى يا صديقى من حديثك عن آلهتنا الأقدمين ولا أعذب . ولست أقول لك ذلك مجاملة ولا تمليقاً . فقد رأيت حنقى أول الأمر على عبادة أبيس ومقاطعتى لقصصك عنه استخفافاً بأمره . أما وقد ملكتْ شجون هذا الحديث الشجى علىَّ نفسى وفتحت أمام بصيرتى آفاقاً جديدة للفكر ، فأستأذنك وأستأذن إخواننا فى أن أقطع نغم قصة إيزيس لألقى بفكرة استثارها الآن عندى ما رواه مضيفنا الكريم عن ديودور الصقلى . وإنى بعد ذلك لآذانُ كلّى تلتهم رواية إيزيس التهاماً .

« عبد قدماء المصريين آلهتهم لأنهم كانوا علم النصر وغلب الأعداء ، ولأنهم كانوا يقدسون فى آلهتهم ما تفيض على الحياة الإنسانية من خير . أليس هذا المعنى هو خلاصة الإيمان الإنسانى فى مختلف مظاهره ؟ ! أليس

هو إجلال القوى الظاهرة والخفية التى تمكن للإنسان فى الحياة ، تدر عليه خيرها وتكفيه شرها ؟ ! وهل هذا المعنى إلا السليقة الفطرية لكل حيوان ، سليقة الاحتفاظ بالحياة فى خير ظروفها . فهل لهذا نتيجة إلا أن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان ، وإنما الفارق بينهما أن الإيمان يتطور لأن إدراك الإنسان مرن يتشكل بمختلف صور الحياة ، على حين قد تعجز السليقة عن هذا التشكل ، فيؤدى عجزها إلى فناء الحيوان الذى لم يؤت من فضل الطبيعة مرونة فى السليقة .

« هذه فكرة طرأت الآن علىّ أرجو أن تعينونى على تمحيصها . ويخيل إلىّ أن جانب الحق فيها أرجح . فمن الحيوان ما مرنت سليقته فأمكن تألف الإنسان إياه . ولئن ظل قرار السليقة ثابتاً فى الحيوان الأليف وحيوان مثله لم يتألف ، فإن اختلاف سلوك كل منهما فى الحياة واختلاف معاملته لما حوله ومن حوله واختلاف يقظة المشاعر المختلفة عند كل منهما ، يدل على مبلغ مرونة سليقة نوع من الحيوان أو جمودها . فأنت قد تتألف أسداً أو نمرًا ، وقد ترى سلائقه الوحشية تختفى . لكن هذه السلائق أغلب عنده مما أدخلته عليها من تحوير . فما يكاد محرك يحرك السليقة حتى ينسى الأسد أو النمر ما طبعته أنت عليه ، ويعود الحيوان المفترس بكل شراسته ووحشيته . فأما إن تألفت كلباً أو جواداً كان لتألفك إياه أثر فى سليقته ، فلا تتحرك فيه الغرائز الأولى إلّا أن يدفعه لذلك دافع شديد . ولا ينهض اعتراضنا على هذا أن الأجيال التى مرت على هذه الحيوانات الأليفة هى التى جعلتها كذلك . فلو أن الإنسان وجد فى الحيوانات الأخرى التى ما يزال يعتبرها عدواً مثل ما وجد فى الحيوانات الأليفة من مرونة فى السليقة ، لتألفها أيضاً ولجعل منها عوناً له فى الحياة . والإنسان أمرن الحيوان سليقة ، وقد تشكلت سليقته هذه على الأجيال ، وكانت القوالب الأولى التى

سبكت فيها لتهذَّب وتنقَّى هى قوالب العقيدة . لذلك أرى جانب الحق أرجح فى قولى : إن العقيدة تحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان» .

بهتنا جميعاً لهذه الفكرة الجريئة المفاجئة ، واشتملنا الصمت زمناً . ثم قال الذى دعانا إلى الشاى :

– لعلك يا صديقى بعد سماعك بقية حديث إيزيس أن تمحص فكرتك الطارئة . ولعلنا بعد سماعه نكون أقدر على معونتك فى هذا التمحيص . وأومأ إلى نجىّ أبيس :

– عد إذن بنا يا صاح إلى حديث إلهة الجمال والوفاء . قال نجىّ أبيس :

– نعم هى إلهة الجمال والوفاء . ولن يضير وفاءها أن خدعها الظلام يوماً فحسبت تيفون زوجها وأسلمت إليه نفسها وأعقبت منه . ولولا علم أوزوريس بأنها خدعت لما غفر لها خطأها .

كان الأشيب إلى هذا الموضع من الحديث شارد اللب يفكر فى جميلة سميراميس ويمد بصره إلى الذهبيات كلها يريد أن يعرف أيها قصدت ؟ فلما طرقت العبارة الأخيرة سمعه تبسم وقال :

– ولن يضير وفاء أية حسناء أن يخدعها ظلام معبد الحب فينسلها جميلة مثلها ترث عرش الزهرة من بعدها وتبعث فى الحياة من ضياء حسنها ما ينير جوانبها المظلمة . وهل الوفاء إلا مظهر تجارى لعقد مالى أساسه الفائدة ، هو عقد الزواج ! وهل هو إلا جناية على الجمال وآلهة الجمال !

ابتهج نجىّ أبيس بهذا الدفاع الذى أوحته جميلة سميراميس إلى الأشيب فأضلته ، وعاد إلى حديث إيزيس فقال :

– استعادت إيزيس بمعونة ابنها هورس وصديقيها الإلهين توت ونوبيس أشلاء زوجها أوزوريس ، وجعلت همها أن تعيد إليه الحياة . وكانت كلما عثرت بجزء من الجسم صنعت لأوزوريس تمثالاً من الشمع ووضعت

الجزء الذى عثرت به فى مكانه . فلما اجتمعت الأجزاء كلها أقامت إيزيس وأختها نفتيس حول الجثة وقد لبستا ثياب الحداد ، وحلتا شعورهما ، ودقتا صدورهما ورءوسهما بأيديهما ، كما لا تزال النائحات اليوم يفعلن ، وجعلتا تناديانه مستعينتين بزملائهما الآلهة لبعثه . فأما إيزيس فجعلت تقبل أقدام جثته نادبة : « عد إلى بيتك فأعداؤك ليسوا هنا . عد إلى بيتك وانظر إلىّ فأنا أختك التى تحب . لا تبتعد عنى وعد إلى بيتك حالاً فإنك كلما غبت عن ناظرى اضطرب قلبى وحارت عيناى تبحثان عنك وجريت فى كل ناحية لكى أراك . عد إلى من تحب . عد إلى أختك . عد إلى زوجتك . أواه ! يا من وقف قلبه فلا ينبض ، عد إلى بيتك ولا تبتعد عنى أنا أختك ابنة أمك . إن الآلهة والناس يبكونك جميعاً ، أما أنا فأدعوك معولة فى صراخ يشق عنان السماء . أفلا تسمع صوتى ؟ أنا أختك التى أحببت على الأرض بما لم تحب مثله » . وأما نفتيس وكانت عند رأسه فأعولت نادبة : « أيها الأمير الجميل عد إلى بيتك لتسرّى عن نفسك فليس أحد من أعدائك ها هنا . إنهما أختاك إلى جانبك تحرسان سرير موتك وتدعوانك نادبتين . قم من سريرك لترى أختيك . لقد هزم أعداؤك وهأنذى حارسة أعضاءك . قم انظر إلى ابنك هورس ملك الآلهة والناس . إنه يقيم الطقوس من أجلك ؛ فثوب ينشدك ويدعوك بتراتيله ، وأبناء هورس يحرسون جثمانك ، وروحك تؤدى لها طقوسها كل يوم إذ يجىء الآلهة يحملون الأوعية المقدسة لتعميد صورتك . عد إلى أختك يا أميرنا يا مليكنا ولا تبتعد عنا » .

وأمسك نجىّ أبيس عن القصص برهة كأنما غلبه التأثر بحزن إيزيس ، فقال الشاب :

– ما أشبه نواح إيزيس ونفتيس بنواح مصريات اليوم ! أو ليس حل

الشعور ودق الصدور والصراخ الذى يشق عنان السماء من طقوس حزن نسائنا على اختلاف طبقاتهن ؟ أفترانا مع تناسخ العصور والأديان والحكام والأجناس التى قطنت الوادى خاضعين لحكم ما أنبت الوادى من عقائد وعادات وتقاليد ؟

قال الذى دعانا إلى الشاى :

– وما طقوس الحزن إلى جانب ما نزال نؤمن به على أنه دين القبط أو المسلمين ، وهو ميراثنا عن أجدادنا من قدماء المصريين ! روى هيرودوتس أن الرجال فى غير مصر يقصون شعورهم آية الحزن على حين يرخيها المصريون من أقارب الميت علامة الأسى . وذلك ما نصنع اليوم . وأن المصريين وحدهم يحتملون أن تعيش الحيوانات على مقربة من الناس وفى دورهم ؛ وما يزال ذلك شأن مزارعينا ، وأنهم دون غير يختنون أبناءهم ، فعنهم ورث اليهود والمسلمون الختان . وذكر غير هيرودوتس طقوساً كان يقوم بها أجدادنا لبعض آلهتهم يقوم بمثلها اليوم عامتنا لبعض الأولياء . وفى ذلك مصداق ما ذكره كثيرون من أن العقائد لا ينسخ بعضها بعضاً ، بل يضاف بعضها إلى بعض . وأن كثيراً مما نسميه خرافات العامة وأوهامهم إنما هو بقايا متخلفة من أديان قديمة هى فى النفس الإنسانية أشبه بآثار الحيوانات البائدة المتحجرة فى الصخور ، والتى لا يسهل لذلك زوالها .

« وربما رأيت فيما سيجلوه صديقنا تتمة لحديث إيزيس وبعثاً لأوزوريس ما يعيد إلى ذهنك كثيراً غير ما ذكرت من عادات أهل هذا الجيل وعقائدهم » .

اتجهت الأنظار إلى نجىٍّ أبيس ، كأنما يريد كلٌّ أن يعرف ما لا يزال فى نفسه من آثار الفراعنة العظام . واستطرد هو فى حديثه :

– ولما أدت إيزيس فرائض الحزن استعانت بهورس وبنفتيس وبالآلهة ، فتلوا من الأدعية والأوراد لروح أوزوريس ما كفى لعودها إلى جسمه تمهيداً لبعثه . وهنا تختلف رواية البعث : فمن قائل إنه كان بعثاً زراعياً ، ومن قائل إنه كان حيوانياً . والذين يذكرون البعث الزراعى يرون أن الجثة حملت بعد الأوراد والأدعية إلى شجرة جميز ووضعت خلال ورقها ، وهناك تم بعثها بعد سبعة أيام إلى حياة خالدة تحياها فى السماء . والذين يذكرون البعث الحيوانى يرون أن الجثة وضعت بعد الأوراد والأدعية فى صورة بقرة صنعت من الخشب ظلت فيها سبعة أيام كذلك ، ثم تم بعثها إلى الخلد .

« ثم عاد أوزوريس من العالم الآخر يوماً وسأل ابنه هورس عن أجمل الأعمال فى نظره ، فكان جواب الإله الشاب : أن يثأر لأبيه وأمه ممن أساء إليهما . وأعلن الحرب على إله الشر . وكانت بينهما موقعة دامت أياماً وانتهت بهزيمة الشر ووقوع تيفون أسيراً فى يد إيزيس . لكنها بدلاً من أن تقضى عليه أو تسجنه أطلقت إساره . وقد أحفظ ذلك هورس حتى انتزع عن رأسها تاج الملك » .

هنا تدخل الأشيب معترضاً :

– يا لهورس من ساذج ! أحسب أمه نسيت يوم خدعها الظلام وألقى بها فى أحضان تيفون فأخصبها ! فهل تراها وهى إلهة الخصب تقسو بتيفون لأنه الشر ، منكرة ما للشر فى أحيان كثيرة من فضائل وحسنات ؟ !

وعجبنا لضلال الأشيب بعد سحر الفاتنة إياه ، واتجهنا لسماع قصة إلهة الوفاء :

انتزع هورس تاج الملك من رأس أمه ، فغضب لذلك الإله هرفس وأبدل إيزيس من تاجها خوذة على صورة رأس بقرة تمثل الإلهة هاتور رمز إيزيس

نفسها . ويذهب القصاص إلى أن هورس ازداد لذلك غضباً فقطع رأس أمه . لكن هذه الرواية موضع شك عند المؤرخ اليونانى فلوطرخوس . وهو يذهب إلى أن الأم والابن تصالحا وعادا يحاربان الشر وانتصرا عليه فى موقعتين نصراً حاسماً ، وصارت إيزيس بعد ذلك إلهة الخصب وهورس إله الخير ، ولعلهما ارتقيا بعد ذلك إلى السماء راضيين .

« هذا حديث إيزيس فى مصر ، أما حديثها فى اليونان وروما . .

هنا أشار الأشيب من جديد معترضاً :

أمسك بربك وحق أبيس هنيهة . ألا ترون إلى ذلك الزورق المرخاة سدوله من حوله ؟ اقصد بنا إليه ياريس . إنى لأتحسس فيه همساً من نجوى الهوى لا أشك معه فى أنه معبد سيدتنا سميراميس . وهذا هو يتجه صوب ذهبية صديقنا الخليل . فإذا صدق ظنى فما قولكم فى أن نسبق السيدات والسادة إليها حتى لا يحسب أحد منهم أنا تأثرناهم لغاية ؟

وبدا على حديث الأشيب من الجد الذى تلهب به الزهرة دماء عبادها ما ردَّنا عن مخالفته . وردَّنا كذلك أنا شعرنا بالغبطة لرؤية الفاتنة من جديد ، فأشرنا إلى الريس أن يقترب من الزورق المرخاة سدوله . فأخبرنا هو أنه حقًّا الزورق الذى استقله السيدات والسادة ، واستحثه الأشيب كى يسبقهم إلى الذهبية . وألفينا الخليل واقفاً على ظهرها كأنما ينتظر أحداً . فلما رآنا سابحين نحوه أشار إلينا منادياً :

تقدموا فشاركونى فى ليلة ساهرة هى جديرة بمثلكم ظرفاً وأدباً .

ولما رآنا السيدات والسادة حين ارتقوا الذهبية بدورهم دهشوا ، وألقت الفاتنة على الأشيب نظرة معسولة ردت إليه صوابه . وكانت ليلة ساهرة أرخى كثيرون فيها لأنفسهم العنان ، وإن أبى نجىّ أبيس إلا أن يتم حديث إيزيس فى مصر وروما واليونان .